مذهب الاخلاق

عند الرواقيين

لعثمان امين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

١ — ﴿ التعريف بالرواقية ﴾ : « الرواقية » لفظ يطلق على المدرسة الفلسفية الكبيرة التي انشأها زينون الكتيومي بمدينة اثينا ببلاد اليونان اوائل القرن الثالث قبل الميلاد

ويدعى انصار تلك المدرسة بالرواقيين أو « أصحاب الرواق » أو « اهل الظلّ » نسبة الى الرواق المنقوش (المسمى باليونانية « ستووا پويكيلى ») ، وكانت تلقى فيه المحاضرات الفلسفية في ذلك العهد

فالمدرسة الرواقية القديمة مدرسة قامت بعد أيام ارسطو ، وهي معاصرة لمدرسة « ابيقور » . وترجع نشأة المدرسة اذن الى اوائل العصر الموسوم بالعصر الاسكندري ، وهو ذلك العصر الذي ازدهرت فيه الثقافة بمدينة الاسكندرية حين طبقت شهرة تلك المدينة الجامعية المصرية وتفوقها آفاق العالم القديم

وقد اتصف ذلك العصر الاسكندري بخصائص قد نجد كثيراً منها في المذهب الرواقي نفسه : وأهم هذه الخصائص ميل الناس الى الاستكثار من المعارف ، وسعة الاطلاع وغلبة الاهتمام بالشئون العملية على الشئون النظرية المحض ، وتسلط الانظار الدينية والاخلاقية على الانظار العقلية والعلمية

٢ — ﴿ خصائص الرواقية ﴾ : والرواقية ليست مذهباً فلسفيًّا فحسب ، بل هي كذلك وقبل كل شيء أخلاق ودين . ولعل أظهر طابع يميز الرواقية هو نزعتها العملية الارادية التي جعلتها تطرح المذهب المثالي طرحاً دون تردد أو احجام : فالمثل والكليات ليس لها عند الرواقيين حقيقة خارجية ، فليست موجودة خارج الاشياء — كما هي عند افلاطون — ولا هي موجودة في الاشياء — كما هي عند ارسطو . انما المثل والصور عندهم مجردات لا يقابلها شيء في عالم الواقع

والرواقية وان كانت قد قامت على أرض يونانية ، الاّ أننا لا نستطيع ان نعدّها من ثمار

الفكر اليوناني وحده ، بل أحرى أن تكون فلسفتها ثمرة للاتصال الثقافي بين الشرق والغرب، ذلك الاتصال المشهور الذي نشأ على أثر فتوحات الاسكندر الاكبر. اضف الى هذا ان أغلب أنصار الرواقية هم من الشرقيين أو يرجع أصلهم الى أقطار ومدن شرقية كقبرص وصيداء

٣ — ﴿ مقام الرواقيين ﴾ : وللرواقيين في تاريخ الفلسفة شأن خليق ألاّ يُستهان به . ولقد استطاع بعض الباحثين المحدثين أن يوازن بين أثرهم في أفكار الانسانية وبين أثر أرسطو والمشائين . ونحن من جانبنا نقر تلك الموازنة ، ونعتقد أنهُ لا ضير على الرواقيين منها ، إذ أن منزلتهم في تاريخ الفكر منزلة وطيدة . بل انهم قد يزاحمون جماعة المشائين ، فيكادون يسودونهم في بعض المسائل ذات الخطر . قال رُدْيه وهو حجة في هذه البحوث : (اذا كان أرسطو يعدُّ « المعلم الاول » — كما قيل — فان أكبر أثره لا يكاد يعدو مجال المنطق والفلسفة النظرية . أما من ناحية الأخلاق والفلسفة العملية بوجهٍ عام ، فيحق القول بأن الانسانية المفكرة انما عاشت على المذهب الرواقي حتى أدركت المسيحية ولبثت تتغذى منهُ بعدها حقبة طويلة من الزمان) . وكتب ماهافي : (ينبغي أن يبين للملأ ان أعظم تراث عملي خلفهُ اليونان في الفلسفة لم يكن فخامة ميتافيزيقا أفلاطون ، ولا سعة علم أرسطو ، بل نجده في المذهبين العمليين مذهبي « زينون » و « أبيقور » كما نجده في تشكك « بيرُّون » . فكل رجل في وقتنا الحاضر هو إما رواقي وإما أبيقوري وإما متشكك) . وليست الرواقية بحاجة الى تقريظ بعد الذي صاغهُ لها « مُنْتِسْكيو » من قبل في بليغ العبارة إذ قال في كتابهِ « روح القوانين » : (استطاعت الرواقية وحدها ان تربي مواطنين أحراراً ، وأن تنشىء رجالاً عظماء ، وأن تخرج أباطرة كباراً !)

٤ — ﴿ الرواقية والاخلاق ﴾ : والرواقية في صميمها مذهب أخلاقي . هي قاعدة للحياة وللحياة الباطنة . ولا وجود للرواقية حيث تكون الأخلاق معطلة . وقد يتنازع الرواقيون فيما بينهم على كثير من مسائل الفلسفة . والواقع ان الخلاف قد احتدم بين شيوخهم الاولين في أكثر من موضع من المنطق وفلسفة الطبيعة . ولكن هذه أمور تكاد تكون عرضية بالقياس الى جوهر الفلسفة الرواقية . فقد لا يجد الرواقي حرجاً في أن يعتنق في مثل هذه المسائل الرأي الذي يشاء ، ما دامت نتائج نظره من حيث الأخلاق واحدة معروفة ليس الى المساس بها سبيل

والواقع ان تعريفات الرواقيين للفلسفة تدلنا على ان للأخلاق فيها المكان الاول : فقد قالوا الفلسفة ممارسة الفضيلة ، والفضيلة صناعة واحدة لا تتجزأ ، وهي أشرف الصناعات منزلة ، وأشدها ملاءمة لطبيعة البشر . وقال الفيلسوف الرواقي الروماني سنكا : (الفلسفة نهج مستقيم في الحياة . وعلم يُحدثنا لأن نحيا حياة الفضيلة ، وصناعة نسلك بها من السبل أقومها ، الفلسفة ناموس حياة جميلة فاضلة)

٥ — ﴿ النزعات الأولى ﴾ : أول ما يبدأ الرواقيون به نظرهم في الاخلاق هو ان يبحثوا عن الميول الطبيعية ، فيتساءلوا ما موضوع النزعات الأولى للموجودات ، أي ما الفطرة التي فُطرت الموجودات عليها ؟

وهم يجيبون عن هذا السؤال بأن الميول السابقة على الارادة والروية ، والتي يشترك فيها الانسان والحيوان هي على نوعين : ميول تنزع الى حفظ الفرد نفسه . وميول تنزع الى حفظ الجماعة التي ينتمي الفرد اليها . فكل موجود حي انما يملك في الأصل بنيته الخاصة وله شعور بها ، ومن أجل ذلك كان دائم البحث عما يلائمها وما لا يلائمها . ومن قال بأن اللذة هي أول ما رغب فيه الموجودات فقد أخطأ . انما تحصل اللذة للموجود اذا وجد ما يتفق مع بنيته ، والخير لكل موجود هو موافقة طبيعته الخاصة

٦ — ﴿ موافقة الطبيعة ﴾ : وموافقة الطبيعة عند الانسان تعني الحياة وفقاً للعقل . والعقل هو الجزء الرئيسي فينا الذي يقوّم ماهيتنا الانسانية . ويلزم عن ذلك ان الحياة وفقاً للطبيعة هي الحياة وفقاً للعقل . لكن الانسان حين يحيا وفاقاً للعقل لا يكون موافقاً لنفسه فحسب ، بل يكون موافقاً لمجموع الاشياء أي للكون : لأن العقل لا يختص بالانسان وحده ، بل هو أيضاً من خصائص الموجود الكلي : أي من خصائص الكون . والعقل الانساني ليس إلاّ جزءاً من العقل الكلي الشامل . فبالعقل نحيا على وئام مع أنفسنا كما نحيا على وئام مع العالم أجمع

وهذا هو معنى العبارة المشهورة التي قالها زينون : « الحياة وفقاً للطبيعة » . ومعناها أولاً ان الانسان ينبغي عليه أن يعيش على وفاق مع الطبيعة ، أعني على وفق مع العقل ، لأن العقل طبيعة ولكن لها معنى آخر : وهو ان الانسان حين يحيا وفقاً للعقل انما يحيا وفقاً للقانون الكبير الذي يحكم العالم . وخير الانسان وسعادته هي الحياة وفاقاً للطبيعة الكلية . وذلك هو ما تعبر عنه مناجاة مرقس اوريليوس حين قال :

« كل شيء يلائمني ، اذا لائمك أيها العالم ،
وما جاء في الوقت الملائم بالنسبة اليك
فليس متقدماً ولا متأخراً بالنسبة إليّ
« وكل ما جاءتني به فصولك أيتها الطبيعة فهو ثمرة عندي .
وكل شيء يأتي منك . وكل شيء فيك ، وكل شيء يعود اليك »

٧ — ﴿ الفضيلة ﴾ ومن أجل ذلك عرّف الرواقيون الفضيلة بأنها « العقل المستقيم » ، أي العقل الكامل السليم الذي يظل دائماً متسقاً مع نفسه . وينتج عن العقل المستقيم حياة متسقة أجزاؤها . والرجل الفاضل الحكيم الذي تسير حياته كلها وفقاً للعقل المستقيم انما يحيا

وفقاً للطبيعة الخاصة ووفقاً للطبيعة العامة ، وهو مواطن حقيقي من مواطني العالم . وهو يقبل طوعاً كل ما يأتي به القدر من أحداث ، حتى المصائب والنكبات ، معتقداً انها داخلة في النظام الكلي والقضاء الالهي . والرجل الخبيث على عكس ذلك تجده على خلاف مع نفسه ، وعلى خلاف مع الموجودات جميعاً . وهو غريب في المدينة العظمى مدينة الكون . ومع ذلك فالشرير مهما يتمرّد على القدر ، فلن يجديهُ ذلك نفعاً : لأن جهوده للتخلص من الاقدار انما تسوقه حيثما أرادت الاقدار

﴿ فن الحياة ﴾ : اذا عرف الانسان طبيعته وطبائع الاشياء استطاع أن يحدد موقفه منها . والانسان بحاجة قبل كل شيء الى أن يعرف كيف يحيا حياة فاضلة . وانما الحكمة هي التي تكفل تلك المعرفة . والحكمة لا تخالف الطبيعة ، بل هي أولى بأن تكون موافقة للطبيعة . والحكمة فن من أصعب الفنون : إذ هي ترشدنا الى ما ينبغي أن يُصنع لا الى شيء معين ، بل بالاشياء على وجه العموم . ومن الممكن أن نعرف الحكمة اجمالاً بأنها : « فن الحياة »

وسبيل الحياة حياة فاضلة أن يكون المرء دائماً على ثقة من أفعاله . فيجب ان يتخذ لنفسه في حياته موقفاً مقرراً ومسلكاً واحداً ثابتاً لا يتبدل . وأمثل السبل لذلك أن يتصرف في الاشياء وفقاً لحكم العقل ، وقد رأينا ان العقل يطابق الطبيعة . واذا كان العقل ثابتاً فهو كفيل بثبات السلوك الانساني . وما دام الناس لا يسيرون في حياتهم على مقتضى العقل والحكمة فسلوكهم لا يبرح متغيراً متقلباً . ومثل الذين يحيون حياة سيئة قبيحة عند العقل كمثل الذي أغمض السهاد مضجعه فبات متقلباً على جنبيه . ولكي يحيا الانسان الحياة الطيبة ينبغي أن يكون لهُ مضجع يطمئن اليه ، اذا جاز لنا أن نستعمل تشبيهاً كهذا . ولذلك كان أول مبادئنا في الحياة أن يكون لنا فيها خطة معينة ، وأن لا نعمل قط شيئاً جزافاً أو مصادفة

٩ — ﴿ السعادة بأيدينا ﴾ : طمح الناس منذ القدم الى السعادة في الحياة وبحثوا عن السبيل الى ادراكها خالصة مستقلة عن الطوارىء والاحوال الخارجية . وفكر الفلاسفة في هل يستطيع الانسان حقاً بمحض قواه وملكاته أن ينال هذه السعادة فيبرأ من الشرور التي تساور حياته الباطنية كالخطأ وزعزعة الايمان ، والأسف والندم والحزن والجهل ، ومن الشرور الخارجية كالفقر والرق والمرض والبؤس والاهانة والأذى والتشهير

عالج الرواقيون هذه المشكلة فانتهوا الى حلها حلاً عقلياً مجملة فيما يلي : قالوا ان سعادة الانسان لا تخضع للاحوال التي تحيط به وانما تتوقف على حالة في النفس الارادة سلطان عليها . فليست الاشياء الخارجية هي التي تؤثر بذاتها في وجودنا الباطني ، وانما المؤثر الحقيقي هو استعدادنا النفسي الذي يجعلنا نحيا في هذه الاحوال ونحكم عليها أحكاماً تقويمية ، أعني أن نصفها بالحسن أو بالقبح ، بالخير أو بالشر وما الى هذه المعاني

واذن فأحكام القيم التي نطلقها على ما له مساس بحياتنا هي التي تكيف أحوالنا الاجتماعية فتجعلنا نشعر فيها بالسعادة أو بالشقاء ، بالراحة أو بالتعب . فاذا كان للارادة سلطان على أحكامنا ، وكانت السعادة مرتبطة بهذه الأحكام ، كما قدمنا ، فالسعادة هي اذن في مستطاع كل فرد منا اذا أمكنه أن يحرر نفسهُ من أوهام الاحكام . وفي ذلك يقول « ايكتيتوس » الرواقي الروماني : « ان الذي يصيب الناس ويؤثر في حياتهم ليست هي الاشياء نفسها ، بل آراؤهم في الأشياء . فلو كان سقراط يرى الموت شرًّا لوقع الرعب منهُ في قلبه . لكن سقراط لم يكن يرى الموت شرًّا ، فأقدم عليهِ غير مبالٍ » . فقد ظهر اذن ان الموت مثلاً ليس شرًّا في نفسه ، كما يتوهم جمهور الناس ، وانما الشرُّ هو الخوف منهُ

١٠ — ﴿ الانفعالات أحكام ﴾ : ولكن قد يعترض البعض بأن الأشياء قد تؤثر فينا من جهة أخرى تأثيراً مباشراً ، من جهة ما تحدثه في نفوسنا من لذة أو ألم ، أو خوف أو رجاء . وبوجهٍ عام من جهة الانفعالات التي تتولد في النفس في كل حال من أحوال الحياة ، دون أن يكون للارادة أو للاحكام العقلية سلطان عليها

والحق ان هذا اعتراض وجيه . ولقد شغلت هذه المسألة بال الرواقيين . فرأوا في الانفعالات النفسية حجر عثرة في طريق السعادة ولذا كانت أولى عنايتهم أن يبينوا كيف يمكن السيطرة على انفعالات النفوس وأهوائها . ذلك انهم يعتقدون ان الانفعالات النفسية ليست في الحقيقة إلاَّ تصوُّرات وأحكاماً عقلية ، وبهذا المعنى يمكن التصرف في شأنها بما نشاء

ولبيان ذلك فرقوا بين أمرين : بين الاحساس الجسماني وهو شيء لا قدرة لنا عليه ، وبين الموقف النفساني الذي تتخذه النفس عقب الاحساس ، وهو أمرٌ يتعلق بقدرتنا وارادتنا . فالرجل يصيبهُ الألم فيتحمله تارةً ويبقى ماسكاً زمام نفسه ، وتارةً يضنيه الالم ويفت في عضده . ولكنهُ على كل حال يستطيع في نظر أصحاب الرواق أن يقرر بحريته اذا كان يليق به أن يستسلم الى الالم أو لا يليق . وما يصح بالنسبة الى الالم يصح من باب أولى بالنسبة الى الانفعالات النفسية المتصلة بالماضي أو بالمستقبل كالحزن والخوف : فمثل تلك الانفعالات تؤثر في الانسان اذا كان عرضة لخواطر وظنون وأوهام تستطيع الارادة الانسانية أن تحول دون تسربها الى النفس

واذن فهذه الخواطر التي تولد الانفعالات هي أحكام خاطئة ينبغي محاربتها لا باسم السعادة فحسب ، بل باسم العقل وباسم الطبيعة . وذلك ان طلب السعادة مداره النظر الى الطبيعة نظرة عقلية : يدلنا العقل على أن جميع حوادث الكون ضرورية ، لأنها خاضعة في جملتها للقدر . والقدر عند الرواقيين هو تسلسل الحوادث تسلسلاً يجعل بعضها يتوقف على بعض بحيث يمتنع حصول شيء بدون علة ، وينتفي الاعتقاد بوجود الصدفة . والاحكام

الجامحة التي تحدث في النفس انفعالات بؤس انما مصدرها الاعتقاد بالصدفة ، وبأن الاشياء يمكن ان تحدث جزافاً من غير ضبط ولا تدبير . فانفعال الاسف مثلاً منشؤه الاعتقاد بان شيئاً وُجد وكان يمكن أن لا يوجد . وانفعال الخوف يتضمن الاعتقاد بان المستقبل غير محدود ولا مضمون . وانفعال الحزن هو تعجل الألم مما لا يجدي الحزن عليه

والخلاصة ان اصحاب الرواق يرون انهُ لا يجوز عقلاً ان نطلق على الحوادث الخارجية أحكاماً تقويمية من شأنها ان تعرضنا للانفعالات النفسية التي تحرمنا سعادتنا وراحة ضميرنا . ويترتب على هذا انهُ لا يصح وصف الاشياء بالحسن ولا بالقبح ، كما لا يجوز مدح الدهر ولا ذمه ، إذا جاز لنا أن نستعير ذلك الاصطلاح العربي الذي لا يخلو من نفحات رواقية . انما وجود الحوادث على ما كان ينبغي ان تكون . فليس في وسع الحكيم والحالة هذه الا أن يقابلها بشيء من الاذعان وان ينظر اليها نظرة قليلة الاكتراث والمبالاة

— ﴿ قدر وعناية ﴾ : ولننظر الآن ما التسليم والاذعان في مذهب الاخلاق عند الرواقيين والى أي شيء كان يمكن ان يفضي مذهبهم فيه ، والى أي شيء قد أفضى بالفعل

أما ما كان يحتمل أن يفضي اليه هذا المذهب فشيئان :

اولهما — سلب كل حرية ارادية ونفي كل تربية اخلاقية

وثانيهما — ضرب من فرط الهدوء وفقدان التأثر قد يكون من بعض عواقبه جمود الحس وخمود الشعور

لكن الحقيقة أن في الرواقية أموراً أخرى أقوى وأروع وأجل ، وان يكن قد غفل عنها بعض الباحثين . ولو كانت فلسفة الرواق الاخلاقية خلواً من مواضع القوة والروعة والجمال ، على نحو ما قد يصورها خصومها ، فكيف كان يتيسر لها البقاء بل كيف كان يتهيأ لها أن تكون ملهمة للسلوك الاخلاقي والاجتماعي ، على النحو الذي حفظهُ لها التاريخ ؟

ولبيان ذلك نقول : ان « القدر » بمعناه المتداول الآن قد لا يعبّر تعبيراً وافياً عن مذهب الرواقيين في الكون . ولو سميناه « العناية » أو « التدبير » ، لكنا أدنى الى فهم حقيقة مذهبهم فيه . ذلك انهم يرون ان الكون بأسره انما يهيمن عليه عقل مدبر يتصرف وفقاً لنواميس ثابتة وقواعد محكمة . وكذلك كان اعتقاد حكماء اليونان : لم يكونوا يرون في ثبات القوانين الطبيعية قوة غشوماً أو ضرورة بحتة تزول معها كل حرية ، بل كانوا يرون فيها دليلاً على وجود عقل مدبر لا يغفل ولا ينام . وكذلك مال الرواقيون الى عدّ كل ما ينافي معاني التدبير والعناية داخلاً في باب الصدفة والاعتباط

امام قوة شعور الرواقيين ، وعدم مبالاتهم بالاشياء الخارجية فنفسره على وجه آخر : ذلك ان الحكيم اذا كان لا يغيب عنهُ ان جميع حوادث الكون نتيجة ارادة خيرة ، فليس

ينبغي له في عرف الرواقيين ان يقنع بالرضى بتلك الحوادث ، بل واجب عليه ان يريدها وان يرغب فيها . وليس المطلوب في نظرهم هو ان نذعن لقوة لا متناهية ، لا قبلَ لنا أن نفهمها، بل خليقٌ بنا أن نفهم ان العقل منبث في جميع انحاء الكون ، وان العقل الانساني لا يختلف في جوهره عن العقل الكوني : فالحكيم اذا خضع لذلك العقل فانما يخضع له اختياراً لا اضطراراً

ولذا كانت مهمة التربية الاخلاقية هي مغالبة القوى الاجتماعية ، ذوى العرف والتقاليد التي ينوء العقل بعبئها . وكذلك كان اصحاب الرواق يعتقدون ان الانسان خيّر ليس من طبعه الشر . فلم يكن أهل الرواق متشائمين ، بل كانوا ينظرون الى الكون كله بعين الرضى والتفاؤل . فاذا تناولت نظرتهم هذه امور التربية والتعليم ألهمتهم الثقة في الثمرة التي يجنيها الانسان من جهوده ، وما يكون لدروس الاخلاق من أثر مفيد

والحق ان ما كان يهدد الأخلاق الرواقية من دعة وركون وقعود عن السعي وبذل الجهد، قد انقلب بفضل هذه النظرية التفاؤلية شعوراً يشرح الصدر للمستقبل ويفيض على النفس بهجة ونشاطاً ، ويدعوها الى الاقبال على الحياة والاقدام على العمل ، أداءً للواجب الانساني الخاص وتحقيقاً لاغراض الكون العامة

١٢ — ﴿ الحكيم الرواقي ﴾ : بعد ان استنبط الرواقيون الشروط التي يرونها كفيلة بتحقيق السعادة الصحيحة ذكروا في خصال الحكيم وما ينبغي ان يكون عليه ، أوصافاً كثيرة مشهورة، ولكنها ربما كانت أدخل في باب المثل والمجردات منها في باب الوقائع والموجودات

فالحكيم في نظر الرواقيين شخص معصوم ، يحسن جميع ما يفعل ، وأتفه أفعاله جدير بالثناء . وهو شخص لا سلطان للاهواء والانفعالات على نفسه . وان سهام الحوادث لتتكسر جميعاً تحت قدميه . فهو لا يتأثر بشيء ، لا يحس ألماً ولا يستشعر شجناً ولا يعرف همّاً ، ولا يساور قلبه وجل ولا أسف ولا رجاء . هو الذي من غير مال ، والملك من غير مملكة . يعيش بالاجمال في أكمل سعادة ، ويعرف وحده ما يجب في علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفي علاقاتهم بالآلهة . فهو غني ، حر ، جميل ، في وقت واحد ، وهو الحاكم ، والقاضي ، والقس ، وهو أيضاً الخطيب والشاعر والموسيقار والنحوي ، بل ان شئت فقل هو الربّان والحائك والاسكاف الى آخر ما هنالك من مثال : وهو بالاجمال المفرد العَلَم الذي يحيط بكل فن ويتقن كل صنعة ، ويعلم الامور الالهية والانسانية معاً

وعلى هذا النحو مضى أصحاب الرواق مترعين بالحكيم ، متغنين بما له من صفات وخصال وفعال . وكان ذلك من المواضع التي أطلقت ألسنة القدماء من معاصريهم بالسخرية منهم ورميهم بالضرب في أودية الخيال

على أن وصف الحكيم على تلك الصورة المثالية يطلب ان لا يكون معنيّ يونانياً ، وهو

أشبه ان يكون دخيلاً تسرَّب الى الكلبيين قبل الرواقيين

ونحن لا نجد ذلك المثل عند سقراط ولا أفلاطون ولا أرسطو . ثم اننا لا نجد نظيره حتى في أدب اليونان القديم . فنحن مضطرون الى التماس هذه الصورة عند أهل الشرق ، بل الشرق الأقصى : فقد تقرب هذه الصورة للحكيم الرواقي من صورة الحكيم البوذي :

« هو ظافر ، عالم فاهم للاشياء جميعاً . لا يحفل للاحداث عبثاً ، ولا يلقي الى هموم الزمان بالاً . لا حاجة به الى الاشياء ولا رغبة له فيها : هو كالنازح الغريب لا يكترث لمدح ولا ذم ، يقود الآخرين ولا يقودونه ، وهو الحكيم الحق ، وخليق به الحمد والتبجيل ... »

تلك اذن مسحة شرقية صيغت صيغة يونانية

يضاف الى الخصال التي يتصف بها الحكيم شيءٌ آخر هو أنهُ لا شيء في الوجود يستطيع أن يسلبه اياها . اذ الحكمة عند أصحاب الرواق انما هي استقامة العقل . ولما كان العقل خلواً من الهوى والانفعال ، فان الرجل اذا بلغ مرتبة الحكمة فلن يستطيع شيء مهما يكن أن يسلبه اياها : فالهذيان والكآبة والنشوة آفات قد تصيب حواسه وخياله وربما تحدث في نفسه صوراً وأوهاماً ، لكن عقله يبقى كاملاً وحكمته مصونة لا تنال

١٣ — ﴿ مفارقات رواقية ﴾ ولم يرد أصحاب الرواق ان يكون للحكمة درجات متفاوتة الارتفاع ، بل مثلهم الأعلى لا يتحقق في نظرهم الا مرة على وجه الكمال . فالحكمة كالعقل بسيطة مطلقة لا تقبل انقساماً . فاذا كانت الفضيلة هي العقل المستقيم فان الفضائل المختلفة التي يفرق الناس بينها عادة ليست منفصلة بعضها عن بعض ، حتى لتجد الحكيم حائزاً جميع الفضائل في وقت واحد . وكذلك لا يمكن ان يقال أن انساناً له من الفضيلة ثلثها او نصفها . بل الرجل اما أن يكون حكيماً فاضلاً وإما سفيهاً نافعاً . ولا يعدّ فاضلاً من لم يبلغ الفضيلة بتمامها ، كما ان الغريق في الماء لا يكون أقل غرقاً وهو قيد شبر تحت سطح الماء منه في قاع البحر . فلا توسط بين الفضيلة والرذيلة : لأن صريح العقل هو العقل الكامل فهو اما أن يكون موجوداً كله وإما غير موجود بتاتاً . قال « كليانتس » الرواقي : « الناس جميعاً ميالون بفطرتهم الى الفضيلة . ولكن الذين لا ينمون في أنفسهم هذه الميول هم أشرار أراذل ، والذين ينمونها ويركونها هم أخيار أفاضل » . فمن حاز فضيلة واحدة فقد حاز جميع الفضائل ، ومن كان له رذيلة واحدة فله جميع الرذائل . وكل ما خالف الحكمة الكاملة فهو الجنون المطلق والحمق المبين !

وما دامت الحكمة بعيدة التحقيق ، فالانسانية في مجموعها لم تزل في سفه وضلال . ولقد أبى الرواقيون ان يتساهلوا في مثلهم هذا أو ينقصوا شيء دونه كمالاً . فكانوا كلما ذكر أمامهم اسم شخص مثل ديوجانس أو سقراط — يمكن ان يتخذه الناس مثالاً في الحكمة

والسيرة الفاضلة ، يرددون مصرّين : لا ! لا ! ان المثل الذي خطر ببالنا أبدع وأروع . لم يره أهل الأرض في حياتهم قط . وان صح فلم ينعموا به أكثر من لحظة . ثم ولّى بغير لقاء !

فيظهر من هذا ان الرواقيين كانوا يرون ان بلوغ الحكمة أمر عسير بعيد المنال ، وانه ليس للفضيلة ولا للرذيلة مراتب . فكما ان العمل الحسن ، وان بدا تافهاً ، يتطلب الفضيلة كلها ، فكذلك جميع الذنوب متساوية ، لانها تتضمن فقدان العقل المستقيم

١٤ — ﴿ الاشياء المتساوية ﴾ : ومن هنا كان العقل الصريح المستقيم هو المعيار الوحيد للخير والشر . وكل فعل يتم على مقتضى العقل الصريح هو « فعل مستقيم » صريح أي فعل حسن : كالاعتدال والحكمة والشجاعة والعدل . وكل فعل يتم من دون العقل الصريح هو فعل قبيح : كالجهل والاسراف والجبن والظلم

لكن الاشياء في ذاتها ، بصرف النظر عن ميلنا الداخلي ، ليست حسنة ولا قبيحة ، بل هي «متساوية» . ومن هذا القبيل الاشياء التي يتكالب الناس عليها عادةً كالصحة والمال والجاه . لانها يمكن أن يحسن أو يسوء استعمالها

والحياة نفسها ليست في ذاتها خيراً ولا شرّاً . ومن أجل ذلك حقّ لنا أن نفارقها اذا عادت لا تتيح لنا أحوالاً ملائمة تسمح للفضيلة بأن تتجلى وتشرق

وجميع هذه الاشياء التي ليست حسنة ولا قبيحة ليست مما في طاقتنا . وانما الشيء الوحيد الذي هو في طاقتنا هو أيضاً الشيء الوحيد الذي له قيمة في ذاته : وهو استقامة العقل واتساقه في نفسه ، وينتج عنهُ اتفاقنا مع الطبيعة كلها

١٥— ﴿ الاشياء المفضلة ﴾ : ومع ذلك فقد اضطر الرواقيون أن يقروا بأن هنالك أشياء تكون في نظرنا أكبر قيمة من غيرها . أي هنالك أشياء نفضلها على غيرها

قالوا : صحيح ان الفضيلة ، أي العقل المستقيم ، هي الخير الوحيد ، وان الرذيلة هي الشر الوحيد . لكن هنالك أشياء وان لم تكن بنفسها هي الخير ، إلاّ انها تستحق اسم « المفضلات » وهذه الاشياء هي موضوعات الرغبات الفطرية في الانسان ، فهي تتفق وطبيعتنا : كالصحة ، فانا اذا خيرنا بين الصحة والمرض اخترنا الصحة

والفعل الذي تكون غايته شيئاً من هذه الاشياء المفضلة هو « واجب » أو « فعل مناسب » يمكن تسويغه بأسباب وحجج معقولة ، وله حقيقة راجحة . لكن المسافة بين « الواجب » الذي هو الفعل المناسب ، وبين الفعل المستقيم الذي هو حق مطلقاً ، تبقى مسافة عظيمة . ومن أجل ذلك كان الحكيم يعمل ، كالمعتاد ، « أفعالاً مناسبة » . وفي الوقت نفسه يبقى على استعداد لان يعدل عن سلوكه لتؤدي فعلاً مستقيماً . فتلاً هو يبحث في المادة

عن الصحة التي هي موضوع نزعة من نزعاته الفطرية . ولكنهُ اذا أدرك ان مصيره هو أن يكون مريضاً ، اتجه من تلقاء نفسه الى المرض

فينبغي اذن أن نفرق في « الفعل المناسب » بين الغاية التي ننشدها وبين ما يحققهُ فعلاً : فكما ان الذي يجيد رمي السهم ليس هو دائماً الرامي الذي يبلغ الهدف ، بل هو ذلك الذي يبذل لبلوغ الهدف كل ما في وسع الرامي المُجيد ، فكذلك ما تتطلبه الطبيعة حقًّا هو أن نجعل غايات أعمالنا موضوعات للنزعات التي غرستها فينا . أما النتيجة التي نحصل عليها فليس من شأننا أن نقررها . فلربما كان القضاء قد أراد شيئاً آخر غير ما كنا نبغي ، ويجب علينا أن نستقبل بصدر رحب كل ما يأتينا به القدر

١٦ — ﴿ الاخلاص للواجب ﴾ : والانسان جزءٌ من الكون . وهو لذلك حامل عبء مهمة يؤديها فيهِ . وكل فرد في هذه الدنيا أشبه بضيف في مأدبة ، أو بممثل على مسرح . فينبغي عليهِ في نظر الرواقيين أن يبقى في مكانهِ مخلصاً لواجبه . ولا بأس هنا من أن نورد من تاريخ الرواقية الرومانية محاورة قد تعين على إيضاح معنى الشعور بالواجب والاخلاص له عند أصحاب الرواق

أرسل الامبراطور ڤسپاسيانوس (٦٩ — ٧٩) الى هلڤديوس پرسكوس الرواقي يأمره أن يتخلف يوماً عن الذهاب الى مجلس الشيوخ

فقال هلڤديوس : في مقدورك أن تحول دون انتحابي عضواً في مجلس الشيوخ . ولكن لا بدَّ لي من الذهاب الى المجلس ما دمت عضواً فيهِ

فأجاب الامبراطور : ليكن لك ذلك . اذهب ولكن لا تتكلم

الرواقي : انا ساكت ما دمتَ لا تسألني عن شيء

الامبراطور : لكن لا بد أن أوجه اليك بعض الاسئلة

الرواقي : اذن لا بد لي ان اقول ما أراه حقًّا

الامبراطور : اذا تكلمت بما تريد امرت بقتلك او نفيك

الرواقي : ومتى قلتُ لك انني من الخالدين . أنت تؤدي مهمتك ، وأنا أؤدي مهمتي . قد تكون مهمتك قتل الناس أو نفيهم ومهمتي أن أموت دون وجل ، وان أذهب الى المنفى من غير جزع ولا ابتئاس »

نحن لا نرى في مثل هذا الحوار تحدياً ولا صلفاً من جانب الرواقي . ولكنها بساطة واستقامة لا تأنف مسايرة الحال ، وثقة الرجل بكرامته تقية تتطلب منهُ ان يبقى في مكانهِ وان يمضي في مهمته مخلصاً لواجبه وللقوة بعد ذلك ان تفعل ما تشاء

والحق اننا لا نستطيع ان نفهم مواقف الرواقية على وجهها الصحيح ، اذا أخذنا بروح

السخرية التي تبدو في نظرات خصومها. فينبغي اذن أن لا نتهم الرواقيين بالكبر والصلف اذا رأيناهم معتزين بحرية ضمائرهم، واثقين بصحة أحكامهم

١٧ — ﴿ جامعة انسانية ﴾ : قد يؤخذ على أفلاطون وارسطو في مذهب الاخلاق أمران : أولهما — أن هذين الفيلسوفين أخضعا الفرد للدولة وأنكرا بذلك حق الانسان في الحرية الشخصية .

ثانيهما — انهما لم يعرفا من روابط الصداقة والعطف الا ما يكون بين المواطنين من أهل المدينة الواحدة، ولم يعمما صفة الانسانية تعميماً تتخطى به حدود المكان والزمان . حتى اننا لنعجب اذ نرى أرسطو يقرّ في بعض كتبه مزاعم معاصريه القائلين أن أبناء اليونان أعرق جنساً وأشرف قيمة ممن ليسوا بيونان

وجاء أصحاب الرواق فكانت لهم رسالة أخرى : حاولوا القضاء على تلك النزعة، وخطوا في هذه السبيل خطوات جديدة، فأحلوا الانسان محل المواطن، أعني أنهم مالوا الى عدّ الانسانية أسرةً أعضاؤها أفراد البشر عامة، أيّاً كانت نحلهم أو السنتهم وبلادهم

تلك هي الجامعة الانسانية التي نادى بها اصحاب الرواق في العصر القديم . وتذهب تلك الوحدة العالمية الى القول بوجود رابطة اخلاقية موثقة، تربط بين الآلهة وبين بني الانسان . ذلك أن اهل الرواق كانوا يعتقدون ان روح الانسان لا تختلف في جوهرها عن عقل الكون وان الآلهة والناس ليسوا في الحقيقة الا اجزاء من هذا العقل الكوني . ولما كان الانسان مخلوقاً قد أعدته الطبيعة للاجتماع والعمران فقد وجب على الناس ان يكونوا اخواناً، وان يؤلفوا فيما بينهم ما يسميه الرواقيون « مملكة العقل »، وهي مملكة تشمل أفراد الانسانية جميعاً، باعتبار أنهم أوتوا نصيباً واحداً من العقل وانهم مهيئون للفضيلة. واذن فالدولة المثالية عند الرواقيين لا تعرف حدوداً ولا فروقاً، بل هي مجتمع عقلي يضم البشر أجمعين وان شئت فقل هي امبراطورية مثالية واسعة الاطراف، حتى قال بلوطارخوس مشيراً الى هذه الفكرة : « ان ما مهدت له فتوحات الاسكندر من طريق التاريخ، قد أتمته الفلسفة من طريق العقل »

لكن يجب أن لا يغيب عن بالنا ان الرواقيين لم يريدوا بهذه الامبراطورية الواسعة أن تكون قوة سياسية ذات كيان مادي، بل أرادوها جامعة روحية تقوم قبل كل شيء على وحدة المعرفة والارادة . والحق ان فكرة الجامعة هذه لم يكن لها أول أمرها علاقة بالسياسة مطلقاً . إذ ان المدن الانسانية الواقعية تقتضي بين البشر فروقاً وضروباً من التفاضل والتفاوت في حين أن « المدينة الفاضلة » أو « المدينة الالهية » في نظر أصحاب الرواق انما هي مجتمع

تحل فيه الوحدة العقلية محل الوحدة السياسية ، وتقوم فيه المودة الروحية بين الناس مقام القانون

على أن الجامعة الرواقية ان لم تكن تصبو الى التأثير في الأنظمة القائمة تأثيراً مباشراً كما قلنا ، فقد أتيح لها مع ذلك على مرور الزمان ان تحدث آثاراً بعيدة المدى : فقد استطاعت ان تلقي طابعاً قوياً على فكرة القانون عند الرومان ، وبقيت مصدر الهام خصب عند مشرعيهم ، كما استطاعت أن تؤثر في توجيه الدعوة المسيحية الى المحبة والرحمة ، وأن توحي الى جان جاك روسو وفلاسفة القرن الثامن عشر في فرنسا نظرياتهم في اخاء بني الانسان وحقوقهم في الحرية والمساواة

١٨ — ﴿ فضل الاخلاق الرواقية ﴾ : ذلك مجمل الاخلاق الرواقية . ولسنا نزعم ان تلك الاخلاق كانت كافية وافية ، بل ان فلسفة الرواق كثيراً ما ركبت في أحكامها شططاً ، وتجاوزت في مطالبها حدود الطاقة البشرية ، فاستحقت أحياناً ما رماها به بعض خصومها من أنها كانت حديث خرافة ووهماً لا حقيقة . ولكنا يجب مع ذلك ان لا ننسى ان الرواقية قد استطاعت بفضل مبادئها النبيلة وبما كان لشيوخها من حسن القدوة ان تثبت ما للشخصية من قيمة ذاتية وان تقوي في نفوس الناس الشعور بالواجب ، وان تحرر الفرد مما في المجتمع من قيود وسدود ، وان تخضع الانسان لا لقانون وضعي يفرق بين الناس طبقات وطوائف وقبائل وشعوباً ، بل لقانون الهي يسود العالم كله ، فيؤلف بين العقول والأرواح ، ويجعلها تتخطى حدود الحياة على الأرض ، حتى لقد قال شيوخ الرواقية :

« ليس المجتمع الانساني وطن الحكيم ، بل وطنه الأكبر هو الكون بأسره »

***

والحق ان الاخلاق الرواقية قد تيسر لها ان تصون الكرامة الانسانية في عهود الظلم والهوان ، فضلاً عن انها كانت في جميع عصورها ملهمة للبطولة وملاذاً للنفوس القوية الزكية ولقد أصاب بعض الباحثين المحدثين اذ قال :

« الرواقية لا يمكن بحال ان تلائم النفوس الضعيفة ولا العامية . انها انما تستهوي على الخصوص النفوس التي لا تعرف الاشياء لأنها لم تجربها ، والتي لها اعتداد مبالغ فيه بقواها لأنها لم تبل على شيء كثير . قد يكون موجباً للدهش ان نرى الرواقية تنبت في عصر اضمحلال لو كانت وحدها منفردة على المسرح ، ولو كانت الابيقورية لم تجيء في ذلك الوقت لتخاطب الجماهير ، في حين أن الرواقية لم يكن ليستمع لها الا النفوس الممتازة . لقد أسدت الرواقية أيادي عظيمة في الأزمان القديمة ولا أقول إنها لا تستطيع أن تسدي الآن »